خطوط ومسارات فلسفة الحضارة

طريف عيد السليطي

(حلقة حرف الفلسفية)

9 سبتمبر 2025

البداية من العنوان، وهو مركب من مفهومين أو مصطلحين. الفلسفة: أي العلم بالكليات والمفاهيم المجردة، وهي مجال معرفي مشهور يتم تعريفه ضمن مذهب كل فيلسوف. الفلسفة Philosophyفي نطاق هذه الورقة تسعى إلى معرفة (كليات) و (مفاهيم) كبرى للحضارة، وتتجاوز التأريخ للحضارة نحو معرفة كلياتها، ومصيرها، وأسئلتها العمومية الهامة. فلسفة الحضارة إذن تتعالق مع فلسفة التاريخ لكن تركز على ظاهرة الحضارة وسط التاريخ: هل الحضارة ظاهرة مؤقتة؟ هل الحضارة مخصوصة بعرق أو ثقافة معينة؟ هل يمكن تخيل أو تصور حضارات في المستقبل على ضوء معرفتنا بحضارات الماضي والزمن الحاضر؟

الحضارة Civilizationهي ظاهرة إنسانية قديمة قدم تاريخ الإنسان المكتوب، وهي ذروة نشاط الإنسان ومنجزاته وإبداعاته، وتتصف الحضارة بالاستقرار والتفرغ للرقي بأحوال الإنسان، وتوفير احتياجاته الأساسية والمضي قدما نحو تحقيق أقصى منجزاته وممكناته " الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء كان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"[1]. وهذا ليس ببعيد عما ذكره ألبرت اشفيستر: "إن الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء" [2] وفلسفة الحضارة تُعنى بفهم كليات الحضارة ومفاهيمها الخاصة وكذلك المفاهيم المرتبطة بها كالثقافة والسياسة والاقتصاد والتاريخ، وفي هذه السطور محاولة للتمييز بين الحضارة وهذه المفاهيم؛ وهو تمييز إنساني لا يعني انفصال هذه المفاهيم عن بعضها بقدر ما يعني معرفة علاقاتها البينية وخصوصية كل مجال من هذه المجالات.

ومن أبرز المفاهيم التي يتم الخلط بينها وبين الحضارة مفهوم الثقافة Culture. فالحضارة نشاط إنساني موضوعي يقرر التشريعات والقوانين والسلوكيات المرتبطة بالمدن والدول ويعزز الإنتاج الاقتصادي والمادي، أما الثقافة فهي تتعلق بدواخل البشر وإبداعاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، ومن مجالاتها الأدب والدين والأخلاق. يمكن إيجاز ذلك بالقول إن الحضارة هي عالم الإنسان (الخارجي) والثقافة عالمه (الداخلي). ومن أيسر الأمثلة قولنا إن الأخلاق ظاهرة ثقافية ثم تترسخ حضاريا عبر القوانين. لكن الأخلاق أوسع نطاقا من القانون لأنها روحية وثقافية أما القانون فهو مدون ومسجل وله تبعاته السلوكية والواقعية. الثقافة: عالم الروح والمعنى. والحضارة: عالم النظام والمبنى.

[1] حسين مؤنس. الحضارة. ص13

[2] ألبرت اشفيتسر. فلسفة الحضارة ص 34

ذكر المفكر مدني صالح أن الحضارة " حيازة تنظيمية وإنها السياسة والتشريع والأخلاق" وبخلافها فإن الثقافة هي "حيازة إبداعية وإنها العلم والأدب والفن" [3] ويبدع مدني صالح في قطعة أدبية وهو يصوغ معاني الثقافة بقوله: "يجب أن تظل الثقافة من عالم الحلم والأماني والأخيلة والتصورات والأمنيات الباذخة المترفة المطلقة المجردة من كل ما قد يعيق حرية الأحلام ضد الواقعية الحرفية" [4].

ويمكن القول بأن الثقافة وتشيع حتى عند البدائيين وسكان الأطراف في كل مكان، وعكسها الحضارة فهي أحادية ولا تقبل المنافسة حين تشيع وتتسيد وتظفر، فهي تطغى على ما عداها تماما بل وتقضي على ما ينافسها من حضارات. وأبرز مثال على ذلك قضاء الحضارة الغربية على الحضارات الأصلية في القارتين الأمريكيتين.

فإذا أدركنا الاختلاف في معنى الثقافة والحضارة وفهمنا السياقات المرحلية والمنطقية لكل منهما، وكون الثقافة متاحة لكل المجتمعات بما فيها المجتمعات البدائية، طالما أنها تحصلت على اللغة واللسان والوجدان والذاكرة، فإن الحضارة ليست كذلك، وهي وليدة تطور الثقافة واحتياجها إلى الدولة والمؤسسات والتشريعات التي تتجاوز ابتكارات الأفراد. وبمعرفة هاتين المرحلتين الضروريتين يقودنا البحث إلى معرفة مرحلة محتومة (حال نضج الثقافة والحضارة معا) وهي المدنية. فحين تصل الحضارة- كل حضارة – إلى استنفاد إمكاناتها المعنوية والمادية تتحول إلى المدنية والاستهلاك.

ذكر فؤاد زكريا توضيحا حيال المدنية قال فيه نقلا عن مكايفر Mac Iver: "إن المدنية تتعلق بالوسائل، والحضارة بالغايات، فالمدنية تشتمل على مظاهر التقدم الصناعي والاقتصادي، مادام ذلك النوع من التقدم لا يهدف إلا إلى تحقيق الرخاء للإنسان" [5]. وهذا ما يعطي للمدنية طابعا ماديا واضحا وهي تهتم بالاقتصاد والإنتاج والرفاهية الإنسانية؛ وهي مرحلة أخيرة من مراحل تطور الحضارة تتلو مرحلتي الثقافة والحضارة وتختم بذلك مسار الحضارة، وهو أمر وقع مع الحضارات السابقة (الرومانية والإسلامية والغربية في العصر الحديث) حيث تسود العولمة والاتصالات وتشيع التجارة بين الدول وتطغى سمات التعامل المادي بين المجتمعات، بل وداخل المجتمع الواحد.

ولو قارنا ذلك بمرحلة الثقافة لوجدنا البون كبيرا ففي مرحلة الثقافة تطغى الهوية المحلية والثقافة الشفوية والفروسية والشعر والدين، ثم تتطور مع صعود الحضارة وتكون على هيئة نصوص مكتوبة وتشريعات محددة وتتقلص الروح رويدا إلى جسد واضح المعالم، لكن مع المدنية تصبح الأمور أكثر تقييدا وتحديدا وتأخذ الحضارة منحى ماديا وحسيا وتشيع العقلنة الدقيقة أو "الأداتية" وفق المصطلح الحديث، ويكبر السوق فيتحول إلى سلطة نافذة في عالم المدنية، وتتجه الجماهير والنخب على السواء إلى تحقيق الإمكانات المادية واعتصار ثمارها حتى الرمق الأخير.

---

[3] مدني صالح. بعد خراب الفلسفة. ص15

[4] المرجع السابق. ص63

[5] فؤاد زكريا. الإنسان والحضارة. ص13

مسارات الحضارة

حاول كثير من المؤرخين والمهتمين بظاهرة الحضارة التنبؤ بمسارات الحضارة مثل ابن خلدون وأزوفلد شبنغلر وأرنولد توينبي. وبالمثل فعل فلاسفة التنوير في أوروبا وسبقهم أيضا القديس أوغسطين في القرون الوسطى. ما الفائدة من هذه الجهود؟ إنها جهود فلسفية وليست مختصة بالتاريخ وحده، ومسار تاريخ الحضارة أقرب ما يكون إلى الميتافيزيقا والغيبيات ولا يمكن إدراكه عقليا أو حسيا بالمعنى العلمي للكلمة.

إننا لا نعرف وجهة الحضارة بقدر ما نفهم بعض معطياتها، وندرس أحداثها الكبرى مثل اجتياح الإسكندر المقدوني لشمال إفريقيا، أو الفتوح الإسلامية في ثلاث قارات، أو بروز عصر النهضة ثم التنوير أو الحربين العالميتين. من خلال فهم (الحدث) تتشكل أمامنا خارطة ضبابية لا ندرك من خلالها تفاصيل المسار الحضاري بقدر ما نسعى لتخمين المشهد التالي وتوقعه: والتوقع prediction ممارسة علمية وبحثية تهدف للسيطرة على الظاهرة المتبدية أمامنا على كل حال. لكن، ولأنه "توقع" فهو احتمال وليس يقينا.

المسار التقدمي أو (الخطي) للحضارات Linear

اشتهر هذا النوع من التفكير في مصير الحضارة بصورة أوضح على يد فلاسفة التنوير ومن تبعهم. مثل فولتير (1694-1778) والموسوعيين مثل دالامبير (1717-1783) وديدرو (1713-1784) وهو اعتقاد بضرورة تقدم الحضارة وكون ما سلف منها تمهيد للتطور الذي شهده مفكرو عصر التنوير.

كان لتتابع الاكتشافات العلمية على يد إسحق نيوتن وغاليليو غاليلي، وظهور علوم التشريح والجيولوجيا والتطورات الهامة في الطب والاستكشافات الكبرى للقارات أثرها الهائل على أفكار فلاسفة التنوير ممن وجدوا في هذه الكشوف المعرفية والعلمية دليلا على التقدم البشري. وبالمثل فإن هذا التفاؤل التنويري استمر في القرن التاسع عشر عند هيغل (1770-1831) الذي رأى في التاريخ مسرحا لانكشاف الروح المطلقة Geist والعقل الكوني، وهو انكشاف "تقدمي" إن صح مثل هذا الوصف. وعلى غرار التنويريين واصل التطوريون مثل هربرت سبنسر رؤيتهم التقدمية للتاريخ والحضارة وأن العصر الذي عاشوه شهد اكتشافات لم تتوفر لمن قبلهم، وبالتالي تمنح عصرهم الأفضلية على ما سبقه من عصور، وتمهد لاكتشافات أعظم في المستقبل.

قال بليز باسكال عن الأجيال كافة أنها كرجل واحد حي على الدوام ويتعلم باستمرار [6] وهذا ما يجعل من تقدمه الزمني إضافة مستمرة لمعارفه. ومثله قال ليبنتز إن زمنه الذي عاشه هو أفضل الأزمنة. مثل هذا المسار التطوري والخطي للحضارة والتاريخ قد لا يكون معلنا على الدوام أو وليد تصورات متعمدة بقدر ما يعبر عن روح تقدمية ثاوية في أفكار أبناء ذلك العصر.

[6] حسين مؤنس. الحضارة. ص170

المسار الدائري للحضارة Cyclical

من رواد هذا الاتجاه في التفكير الحضاري ابن خلدون وأوزفلد شبنغلر. الحضارة هي نشوء متواضع للقبائل أو الشعوب الصغيرة التي تسكن في البوادي والأرياف وأطراف الحضارة، وتتحول هذه الجماعات الأولية نحو الحضارة عبر الصراعات الشاقة متسلحة بما تملكه من ثقافة تتجسد بالفروسية والشعر والعقائد الموروثة. يربط ابن خلدون بين أجيال الأمم، أولها جيل يؤمن بالعصبية بين أفراد العشيرة أو الجماعة ويعمل على تأسيس كيانه وسلطته ضمن هذه العصبية. ويتلوه جيل يحصد ثمار الجيل الأول وقد يواصل البناء بعده لكن بعد أن ينغمس في اللذات ووفرة الحضارة. والجيل الأخير يقع على يديه انهيار الدول لأنه غرق تماما بهذه اللذات واتجه للرفاه والرخاء والاستهلاك وضعفت عنده العصبية [7].

وشبنغلر يتبع مثل هذا التقسيم وإن اختلف المضمون فهو يرى في الثقافة المرحلة الأولى لنشوء الحضارة وهي ميدان واسع للمعتقدات العقلية أو الروابط الوجدانية والدموية بين أفراد الجماعة. ثم يشتد قوام هذه الثقافة وتنهض في صورة دولة ومؤسسات وتشريعات وقوانين، وهذه هي مرحلة الحضارة. وتنتهي أخيرا حين تتحول إلى المدنية والاستهلاك وتشيع فيها النزعة الحسية والعدمية الفكرية والاضطرابات والفوضى في نهاية الأمر.

إنها دورة حضارية مثل حياة وممات الكائن الحي: " فكما أن للإنسان دورة حيوية تبدأ بالطفولة والشباب، ثم النضج، والشيخوخة، وأخيرا الموت، فكذلك لكل حضارة فترة شباب ونضج وتدهور. وكل من هذه المراحل ضرورية، لها مدة محددة" [8] ويستبدل شبنغلر هذه الصورة بتشبيهه للحضارة بالمواسم. فلكل حضارة ربيع، وهو مرحلة الروح والأسطورة والشعر والإلهام، ويزدهر الفن العفوي الذي يعبر عن روح الجماعة الأولى. ثم يأتي موسم الصيف وهو فترة الثقافة الرفيعة والأرستقراطية النبيلة ويخرج كبار الفنانين والمبدعين ينتجون الروائع. ويعقب الصيف الخريف حيث يسود التحليل العقلي الجاف ويتضخم النتاج الفكري والمادي وينتشر حكم الجماهير كالديمقراطية والاشتراكية ويكتسب المال أهمية مضاعفة. الموسم الأخير هو الشتاء القارس وتتوطد المدنية حيث تُستنفد آخر إمكانيات الحضارة، وبعد هذا الموسم لا يبقى من الحضارة إلا بريقها الخافت القديم وفراغها العدمي الباهت [9].

من الأمثلة التاريخية لهذه المواسم: فترة الجاهلية عند العرب وفيها ولد الشعر العربي وصار مثالا أدبيا لما بعده من الأشعار، وذيوع الفروسية بين العرب وعلو ذكرها بينهم، ثم مولد الإسلام وتأسس الحضارة الإسلامية العملاقة في ثلاث قارات تمثل العالم القديم، وبروز الدولة الإسلامية متعددة الأمصار والأقطار، وهي فترة الحضارة الإسلامية في أوج عطائها. جاء بعدها عصر انقسام الدويلات والذي تفكك فيه الكيان الإسلامي إلى دول كثيرة وممالك وطوائف، الدول الفاطمية والأيوبية والمملوكية والسلجوقية والبويهية وسواها. وهذا لا يشير إلى التفكك السياسي وحده بقدر ما يعني ضعف الحضارة وتحولها نحو المدنية ثم تراجع هذه الحضارة أو (تحجرها) وفق وصف شبنغلر بعد أن فقدت حيويتها وريادتها التاريخية.

---

[7] ابن خلدون. المقدمة. ص 124

[8] فؤاد زكريا. الإنسان والحضارة ص 44

[9] المصدر نفسه

وينطبق نفس الأمر على الحضارة الغربية الأخيرة وميلاد الثقافة الغربية في القرن العاشر ميلادية على وجه التقريب وظهور أسطورة بيوولف مثلا، وتحالف الشعوب الجرمانية واللاتينية في أوروبا، وظهور الطراز القوطي في البناء، واستقلال الأمم الأوروبية شيئا فشيئا عن سيطرة الإمبراطوريات الرومانية والبيزنطية. يعقب ذلك تطور الحضارة الغربية في عصري النهضة والتنوير وظهور الاستعمار وانتشار القوة الغربية ثقافيا وعلميا وحتى عسكريا حول العالم. أما الأطوار المتأخرة فهي وفقا لشبنغلر – وحتى ابن خلدون قبله – توحي بانتشار المدنية والرفاه وضعف العصبية، مما يوحي بالتراجع المؤذن بانتهاء هذه الحضارة كما هو شأن ما سبقها من حضارات. استمد شبنغلر نظريته في "دوران" الحضارات من نظرية العود الأبدي لنيتشه، ولها صداها في الفلسفات الشرقية لا سيما في الهند والصين حيث الإيمان بتقمص الأرواح وتكرار الزمن.

المسار الماضوي للحضارة

وهذا المسار مثل المسارات السابقة يمتلك تنويعات كثيرة بداخله. فالمسار التقدمي عند هيغل يختلف عن فولتير مثلا، وله صيغة أعقد. وبالمثل فالتفسير الدوراني أو الدوري للحضارة عند ابن خلدون يختلف عن شبنغلر. في المسار الماضوي للحضارة نجد جاك بوسويه في القرن السابع عشر يمثل نزعة تمجد القرون الوسطى السابقة على عصره وأنها النموذج الأصح للحضارة في كتابه (مقال عن التاريخ العالمي) إذ يرى أن المسيحيين وحدهم من يملك تاريخا لأنهم يتبعون كلمة الله[11][10].

لا يمثل بوسويه وحده هذا المسار الماضوي فنجد ما يشابهه في الاتجاه، ولكن بمضمون آخر في كتابات روسو، حيث يتجه إلى الطبيعة، وهي ليست حضارة ولا تاريخا، ويجد إن إنسانا طبيعيا يتفوق في نبله وطهارته على إنسان الحضارة والمدنية كما ذكر في مطلع كتابه الشهير (إيميل Emile) فالطبيعة – العارية من المؤثرات البشرية الفاسدة – هي النموذج النقي للإنسان. ومثل روسو تبنى أنصار الرؤية الرومانسية رؤية ماضوية وعاطفية تجاه الحضارة مثل الشاعر الإنجليزي اللورد بيرن والشاعر الألماني هولدرلين.

لكن على نحو أعمق منهم كان الفيلسوف فريدريك نيتشه متعلقا بالحضارة اليونانية وبالأخص في كتابه عن مولد التراجيديا، فهو يرى في ديونيزيوس رمزا للحياة الغريزية النشطة والمتوقدة على النقيض من أبولون أو رمز العقل الذي يمثل الجانب العقلاني والسقراطي من الحضارة اليونانية وهذا ما ناصبه نيتشه العداء. وينتقد نيتشه في جل كتاباته موقف سقراط وأفلاطون العقلاني والمنطقي ليميل بكل بقوة مع عصر ما قبل سقراط أي الفلسفات الذرية والسفسطائية، ويتبنى الرؤية الديونيزيوسية القائلة بتمجيد حماسة الحياة وحتى الحرب كما فهمها الفيلسوف هيراقليطس. هذا الموقف النيتشوي وإن كان يريد منه الاتجاه نحو مستقبل جديد للحضارة لكنه يتخذ من الماضي مثالا له[12].

---

[11] حسين مؤنس. مرجع سابق ص164

[12] يسري إبراهيم. فلسفة الأخلاق عند نيتشه. ص105

كما تنتشر مثل هذه الرؤية عند المفكرين المحافظين من ثقافات شتى بما فيها الثقافة الإسلامية التقليدية، ولها ما يشابهها في الثقافات الأوروبية أو حتى في الشرق الأقصى. والهدف من وراء هذه المقارنات إيضاح المسار الماضوي لفهم الحضارة وكونه يملك رؤى متحاذية الاتجاهات وإن اختلف المضمون.

المسار الحلزوني للحضارة

يسمى هذا المسار أحيانا بالمسار الجدلي أو التركيبي للحضارة وهو قريب من المسار التقدمي والخطي، ويشبه المسار الدوراني أيضا. إنه تركيب من هذين المسارين، لكنه ليس تركيبا ساذجا أو تلقائيا، فتقدم الحضارة الإنسانية بوجهها العام لا يتم إلا بالاعتراف باختلاف الحضارات السابقة ومراعاة أحداث التاريخ العظمى التي ولدت كل هذه المنجزات الحضارية.

يقر المسار الحلزوني أو اللولبي باختلاف الحضارات المصرية واليونانية والإسلامية عن الحضارة الغربية، ويقر أيضا بالتراكم والتعاقب بينها، وأن لكل حضارة من هذه الحضارات بصمتها الخاصة وخصوصيتها الثقافية، واللغوية، والإنسانية، والجغرافية. لكن هذا التميز لم يمنع من ظهور الحضارة الجديدة باستمرار وأن الشباب يغلب الهرم على الدوام. كتب مصطفى النشار عن هذا المسار التاريخي للحضارة: "أما كون كل حضارة مميزة عن الحضارات الأخرى فهذا صحيح لكن ليس بوصفها أشبه بالكائن الحي المفرد الذي كما بدأ فسيموت منغلقا على ذاته كما يقول دعاة الدوائر الحضارية المغلقة. إن الذات الحضارية أو ما يمكن توصيفه بالهوية الحضارية لكل واحدة من الحضارات الإنسانية الكبرى لا يعني الرفض أو الانفصال عن الحضارات الأخرى سواء السابقة عليها أو المعاصرة لها أو التالية عليها، لأن باني كل دورة حضارية هو الإنسان نفسه بعلمه وعمله، بعقيدته وتقنياته، والهوية الذاتية للإنسان قد تختلف في بعض المظاهر لكنها لا تختلف في الجوهر" [13].

لكن يعجز مثل هذا المسار عن تفسير ظهور حضارات القارتين الأمريكيتين قبل وصول الغزاة الأوروبيين إليهما، فالمعروف أن حضارة الإزتك والمايا والإنكا وجدت منذ آلاف السنين ولم تكن على اتصال مباشر بالعالم القديم، ومع ذلك فقد شيدت صروحا حضارية وكان لها ثقافات عميقة ومعتقدات وآداب لم تتثاقف أو تحتك بمن هم خارج الأمريكيتين. فإن صدق المسار اللولبي في تفسير حضارات معينة ضمن نطاقه التراكمي، فإنه لا يصدق على حضارات سادت وبادت ضمن جغرافيات محددة لم تعرف الانتشار، ولا يمكن تفسير وجود هذه الحضارات إلا ضمن النموذج الدوراني المغلق وحده.

فلسفة الحضارة في اتجاهها العام

بجانب هذه المسارات المختلفة ثمة كتابات عميقة تخص فلسفة الحضارة ولا تكتفي بتحديد اتجاه تاريخ الحضارة أو مسارها، وتهدف إلى إبراز معيار معين تمتثل له الحضارة كي تنمو، وبالتخلي عنه تشيخ وتموت.

[13] د. مصطفى النشار. في فلسفة الحضارة ص29

كتب توينبي عن التاريخ والحضارة وهو مثال على إيلاء المعيار الحضاري أهميته، وجاء بمعيار التحدي والاستجابة كي يفسر نهوض الحضارات أو موتها وذلك في كتابه العمدة (دراسة في التاريخ) ومن أهم ما جاء فيه: "أن الحضارة لا تنشأ في ظروف سهلة، إنما هي – على النقيض – تنشأ في ظروف صعبة، تخلق للإنسان تحديا challenge وهذا التحدي يسفر عن استجابة response تتفاوت حسب الأحوال"[14]. يتخذ توينبي من هذا المعيار أساسا لتحليل الظاهرة الحضارية، فتحديات الجفاف في مصر القديمة دفعت المصريين إلى استيطان دلتا النيل وشيادة الحضارة المصرية هناك. وتحديات الواقع العربي قبل الإسلام وبعده دفعت إلى الهجرات والفتوحات خارج جزيرة العرب وكانت الاستجابة قوية إزاء التحدي القائم. وعند دراسة كل حضارة فإن معيار (التحدي والاستجابة) يكون حاضرا في تحليل ظواهرها منذ النشوء حتى تطور الحضارة وتعقيدها وتضخم التحديات المصاحبة لها في كل مرحلة.

أما ألبرت اشفستر مؤلف (فلسفة الحضارة) فإن معياره في تحليل الحضارة هو الأخلاق، ويجد أن نشأة الحضارات أخلاقية وإنسانية؛ فإذا تخلت عن هذا المعيار أخذت بالتراجع تدريجيا حتى الضمور والاختفاء. وقال بأن حضارة الغرب هي في الأساس حضارة أخلاقية ومادية معا وتصاعدت قوتها في هذين المنحيين؛ لكن منذ القرن التاسع عشر تراجعت الأخلاق بالتدريج لمصلحة القوة المادية وانتهى بها الأمر إلى التضرر من حربين عالميتين كادتا أن تفتكان بالعالم كله "إن الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء" ويقول: "الخاصية المروعة في حضارتنا هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير جدا من تقدمها الروحي. لقد اختل توازنها" .... " ذلك أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان" ويخلص اشفستر ضمن رؤيته الأخلاقية نحو الحضارة إلى القول بتوقير الحياة أي احترام أبعادها الأخلاقية والجمالية وعدم الاكتفاء بالبعد المادي وحده.[15] ويرى أن سيادة الإنسان الحقيقية والحضارية تكون على نفسه أولا؛ أي السيادة على أهوائه ونزواته وغرائزه؛ ثم السيادة على الطبيعة وتسخيرها لأجل الإنسان.

نظرة ختامية موجزة

يدفعنا التفكير بمسارات الحضارة واتجاهاتها التاريخية إلى أن نفكر بكثير من الأسئلة المعقدة وإثارة بعض الخواطر الصامتة تجاه الحضارة، هذه الظاهرة الإنسانية الكبرى.

- هل أفكارنا وليدة الإرادة الذاتية أم أنها انعكاس للمرحلة الحضارية والتاريخية التي نعيشها، فكل جيل تختلف أوضاعه عن الجيل السابق عليه؟

- في الأخلاق الحضارية التي دعا إليها ألبرت اشفيستر هل مصدرها موحد وقابل للإدراك من الثقافات المختلفة؟ وهل نستطيع أن نقول بوجود أخلاق حضارية عامة ليست ذات خصوصية كما حاول كانط أن يثبته في ميتافيزيقا الأخلاق مثلا؟

12 أرنولد توينبي. دراسة في التاريخ. (المقدمة)
15 ألبرت اشفستر. فلسفة الحضارة ص34

- للحضارات القديمة أثرها القوي والعميق في حياة البشر، لكن كيف نحدد بقايا هذه الحضارات في السلوك البشري طالما أنها تأثرت بمن سبقها وأثرت بمن جاء بعدها؟ وكيف نتعقب هذا المنجز أو ذاك لحضارات مختلفة لم تعد محفوظة وباتت مصادرها غامضة؟

- حين نتكلم من موقع المراقب للماضي هل ندرك أن حضارتنا الحالية ستكون في موقع الماضي هي الأخرى وأن أحكامها ليست سائغة في كل الأحوال، إلا بما يخص مرحلتها الحية فقط؟ فالمدنية التي نعيشها والتطور التكنولوجي والاقتصاديات المفتوحة تولد بدورها ظواهر جديدة تفتح على آفاق حضارية ليست في الحسبان.